عين القضاة وكتابه زبدة الحقائق وأهميته اليوم

مقابلة

محمد رستم مع بلال الأرفه لي

مترجم: أبو بكر العاني

من هو عين القضاة وما هي أهميته في التاريخ الاسلامي؟

عين القضاة هو أحد العلماء البارزين في مجالات الفقه والفلسفة والتصوف والكلام. توفي عين القضاة في القرن السادس الهجري. أجرت الدولة السلجوقية عليه الحد بسبب انتقاده لممارساتهم الإدارية الفاسدة ولخشيتهم من تأثيره على تلامذته الذين عمل الكثير منهم في الدولة السلجوقية.

كان عين القضاة أحد تلامذة الشيخ أحمد الغزالي أخو الشيخ أبو حامد محمد الغزالي. وتكمن أهمية عين القضاة في كتابته باللغتين العربية والفارسية ولتأثيره الكبير في التراثين العربي والفارسي وكان له أثر كبير على من تبعه من المتصوفة الذين كتبوا بالفارسية مثل فريد الدين عطار وجلال الدين رومي ومحمود شبستري حيث تأثروا بكتاباته وخصوصاً نقاشاته الأصلية حول الحب وصورة المحب والمحبوب وغيرها. وكذلك هو الحال مع الكتاب العرب من أمثال إبن العربي ونصير الدين الطوسي والملا صدرا الذين تأثروا بنقاشات عين القضاة النظرية حول ذات الله والسبيل إلى المعرفة الحق.

كتاب زبدة الحقائق هو أحد كتب عين القضاة والذي تعمل على ترجمته وتحريره. كيف اكتشفت هذا الكتاب؟

كان قد مر علي عنوان الكتاب كمرجع ذكره علماء من العصر الحديث كما قرأت عنه عدداً من المقالات الجيدة. لذلك كنت أعي مدى أهميته ولكن عندما بدأت بقراءة هذا الكتاب وأعمال عين القضاة

الأخرى بدأت أعلم ما يميز كتاب زبدة الحقائق عن غيره. كثيرة هي النقاشات التي تحاول البحث عن الكتاب الذي كان له السبق في الدمج بين الفلسفة والتصوف وعادةً ما تطرح كتب الغزالي وحتى ابن سينا كضالة هذه البحوث في بعض الأحيان. ولكنه من الواضح بأن كتاب زبدة الحقائق هو الكتاب المنشود. فهو أول كتاب يشرح بالتفصيل الواضح نظريات المعرفة والميتافيزيقية الصوفية باستخدام لغة الفلسفة. وفي الوقت نفسه، يبين عين القضاة كيف يمكن للفلسفة أن تعين التصوف وكيف يمكن لطرق النقاش الفلسفية أن تمهد الطريق لبيان عظمة المعرفة الصوفية.

ولكن كي نتمكن من استيعاب وتقدير ما قدمه عين القضاة في كتابه زبدة الحقائق، يجب علينا أولاً أن نتعرف على الأعمال الأخرى التي سبقته والتي تحاول أن تفعل ذات الشيء؛ أن تدمج بين الفلسفة والتصوف. وإذا ما قارنا هذه الكتب، مثل كتاب مشكاة الانوار للغزالي، بكتاب زبدة الحقائق لوجدناها لا تحاول أن تقدم ما يميز الميتافيزيقيا الصوفية. أي إن هذه الكتب ليست دراسات في علم التصوف الفلسفي بقدر ما هي تطبيقات لهذا العلم في مجالات معرفية محددة وإجابات لتساؤلات وإشكالات نصية.

ما هي أهمّ الأفكار في كتاب زبدة الحقائق؟

يناقش كتاب زبدة الحقائق الجانب النظري لعدد من المناهج الفلسفية التي تميز بها التراث الثقافي الإسلامي اللاحق حيث يحتوي الكتاب، بالإضافة إلى أمور أخرى، شرحاً وافياً وجلياً لقضايا مهمة مثل أزلية الكون وحقيقة وجود تسلسل محسوس في سببية الخليقة مع أن وجود الله هو السبب الحقيقي الوحيد، وكيف أن مفاهيم مثل قبل وبعد هي ليست إلا حوادث زمانية وكيف أن الإيجاد هو عملية متواصلة تنتج من العقل السامي. وفي كتاب زبدة الحقائق، يبين عين القضاة كذلك مدى تأثره بالغزالي حين يعارض منظور ابن سينا بعدم علم الله بالجزئيات إلا بطريقة عمومية وبأزلية الكون. ويتفق عين القضاة مع منهج الأشاعرة في اعتبار أسماء الله الحسنى على أنها صفات مضافة إلى ذات الله حيث يقول عين القضاة بأنها ملازمة لذات الله ولكنها لا تجعل الله أكثر من ذات واحدة وأن هذه الأسماء أو الصفات لا تصف ذات الله ولكنها ليست لا تصف الله.

كما يناقش عين القضاة مسألة فريدة وهي تزامن ذات الله أو الرأي الذي يقول بأن الله ليس معه شيء ولكنه مع كل شيء. ثم تتلاقى كل هذه المسائل بسلاسة رائعة في أهم مسألة يطرحها عين القضاة في كتاب زبدة الحقائق (مع استعارة جزئية من الغزالي) وهي أن المعرفة بالتصوف تتجاوز حدود العقل بل هي نتيجة الذوق وأن هذه المعرفة تختلف عن باقي المعارف الطبيعية والمنطقية التي تفصل وتبعد الله كما لو كان غرضاً من أغراض المعرفة. يقول عين القضاة بأن الله لا يعرف بالعقل بل يجب معرفته بالقلب وبالذوق وأن الطريقة الوحيدة لتحقيق ذلك هي تدريب العقل إلى أقصى حدوده ثم بعد ذلك تسليم الروح للصلوات والأذكار حتى يتحقق الوصل مع الله ليتمكن الإنسان من أخذ المعرفة مباشرة من الله وذلك هو سبب تسميتها بالذوق لأّنك حين تذوق شيئاً ما تصبح حقيقته أكثر وضوحاً لديك مما إذا كنت ستتكلم عنها ضمن الحدود الضيقة لأفكارك وكلماتك.

ما هي أهمية زبدة الحقائق التاريخية؟

الكتاب زبدة الحقائق أهمية تاريخية كبيرة. فبعد أقل من ثلاثين سنة من وفاة عين القضاة أصبح كتابه أحد المناهج المستخدمة في المدرسة المجاهدية المشهورة في مدينة مراغة (غرب إيران) مما يعني أن عدداً كبيراً من العلماء المعروفين الذين تخرجوا من هذه المدرسة قد قرأوا هذا الكتاب مثل السهروردي وفخر الدين الرازي وغيرهم. كما يستشهد إبن العربي بكتاب زبدة الحقائق في أحد أعماله التي كتبها قبل أن يترك مدينة فاس مما يعني أن كتاب زبدة الحقائق قد انتقل من إيران إل شمال أفريقيا في فترة زمنية قصيرة. ونعلم كذلك بأن الفيلسوف والعالم الكبير نصير الدين طوسي قد ترجم كتابه إلى الفارسية ولكن لا نجد أي أثر لهذه الترجمة. وكان لكتاب زبدة الحقائق تأثير كبير على الكتاب اللاحقين مثل عبد الغني النابلسي والذي يناقش العديد من الأفكار الرئيسية في الكتاب وخصوصاً مسألة الذوق طور ورا العقل. حتى في يومنا هذا، يدرس كتاب زبدة الحقائق في العديد من الأماكن مثل تركيا وايران.

ما الذي يمكن لزبدة الحقائق أن يقدمه لنا اليوم كقراء؟

من أهم تعاليم الكتاب لقراء العصر الحديث أنهم يجب أن لا يكونوا متيقنين من معرفتهم الحالية لأن الطبيعة والواقع قد يختلفان تماماً عن ما يدركه العقل البشري. إذا نظرنا إلى مجال الفيزياء المعاصرة لوجدنا على مستويات دون ذرية أكواناً كاملةً لا تدركها العين المجردة ولكنها تحتوي الجزيئات التي يتكون منها عالمنا الذي نعرفه. على المستوى دون الذري، نجد أن هيكلية الأشياء تتناقض مع كل ما نعرفه من المسلمات من حولنا. مثلاً، كنا نعتقد أن الضوء له طبيعة واحدة فقط ولكن الفيزياء الكمية تبين لنا بوضوح بأن الضوء يمكن أن يكون موجة ومادة. وهو أمر يصعب على عقلنا البشري الاعتيادي استيعابه. فالفيزياء الكمية تبين لنا مدى هشاشة وعدم استقرار العالم من حولنا مما يزعزع معتقداتنا ومسلماتنا حول ماهية العالم من حولنا.

وهذا هو ما يحاول عين القضاة تقديمه عبر كتاب زبدة الحقائق ولكنه لا يناقش المنحى الفيزيائي بل يوضح بأنك إذا أردت معرفة المعنى الحقيقي للحياة فإن الطريقة الوحيدة لذلك هي أن تلغي اعتمادك على عقلك وإدراكك وأن تحاول أن تصل إلى حالة من التواضع وصفاء القلب من خلال الصلوات والأذكار لتتمكن من رؤية الهيكلية الجوهرية للأمور من حولك ولتقع في حب الأشياء في الكون كل الأشياء تصبح محبوبة لديك وبالتالي فإن خالق هذه الأشياء سيكون محبوباً لديك فهو المحبوب الحقي. ونحن في زماننا هذا أحوج ما نكون إلى هذه التعاليم التي تذكرنا بأهمية الحب الحقيقي واحترام أنفسنا وكل المخلوقات من حولنا.